طرائف من العصر المملوكي :

رسالة الدار عن محاورات الفار

أو فن القصة

للأستاذ محمود رزق سليم

بقية ما نشر في العدد الماضي

اتبع كذلك المؤلف طريقة الحريري والهمذاني في ابتداع شخصيتين في القصة ، شخصية راوٍ هو « حسان » ومرويٌّ عنه وهو « الحكيم حسيب » الذي أشرنا إليه فيما سبق . فيقول مثلا « قال الراوي حسان . معدن الظرافة والإحسان : فتوجه الحكيم حسيب الأديب الأريب إلى إيراد الأخبار . عن الهداة الأخيار . فحكى أن ملكا من ملوك الأمصار . وسلاطين العجم يدعى « شهريار » ... الخ » . وذلك شبيه بما كان يقوله مثلا أبو القاسم الحريري : حدثنا الحارث بن همام ... ثم يقص قصته عن أبي زيد السروجي .

وقد توخى المؤلف في كتابه ، مفاكهة الناس على اختلاف درجاتهم وتباين مشاربهم ؛ من الحديث المشوق الذي يجذبهم إلى سبل الخير . وأسلوبه وإن كان مزدهاً بالبديع وبخاصة السجع ، لأنه من المولعين به ، من الحق علينا أن نعصفه ، وأن نذكر أنه أخف مئونة من أسلوب المقامات العباسية حين بلغت أوجها على يد الهمذاني والحريري . وهو أكثر حكمة وأوفى مثالا وأدق تعبيراً وأكثر تحليلا لخفايا النفوس ، وإظهاراً لخواجسها . فلم يقتصر على الأوصاف الحسية بل حلل وتعمق وأمعن ودقق . فليست البراعة الأسلوبية رائده الأول أو داقعه الأكبر على تدبيج قصصه وتأليف كتابه . وبهذا كله يفترق عن كتاب المقامات .

أما المقامات فقد عرفناها منذ عصر بني العباس ، قصصاً وصفية يعنى فيها بإظهار البراعة في الصناعة البديعية . وقد اتجه من أدباء العصر المملوكي إلى إجادة هذا الفن من القول . وقد تعددت موضوعاتها واتسع نطاق الوصف فيها ، وخرجت عن سمت الاستجداء ، واستوت المقامات فأصبحت في مقدمة الأغراض الكتابية في العصر المذكور ، ومظهراً من مظاهر الصناعة البديعية ، مع قلة تعسف ، وخفة مئونة . وقد قرأت أربع مقامات لزين الدين بن الوردي (٧٤٨ هـ) التزم في أولها أن يقول : « حدث إنسان . من معرة النعمان » أو نحو ذلك . ولعله يقصد بالإنسان نفسه ، وأولى هذه المقامات « المقامة الصوفية » وقد صور لنا فيها رجلا لقي عشرة رجال كانوا يتجادلون في أمر الصوفية فطفق الرجل يشرح لهم ما خفي عنهم من أمور الصوفية وأسرارهم وشروطهم وما إلى ذلك . فكأنما هي درس تعليمي لا قصة كما نفهم القصة في العصر الحديث . وضمن منثوره شيئاً من النظم المناسب المقام . وفي مقامته الثانية « الأنطاكية » حدث عن مدينة أنطاكية وما فيها من مظاهر طبيعية جميلة ، وقد لقي فيها واليها ، فجلس إليه ، وأخذ الوالي يبثه شكواه من البغيضة الضاربة الرواق بين عجم المدينة وعربها . وخلال نثرها على عادته بأبيات عدة . ومن وصفه فيها قوله عن المدينة : « سورها منيع ، وعاصيها مطيع . وأطيارها تحن إلى نغماتها الجوارح . وأنهارها مطردة وعيونها سوارح . ونسمها يبطل رائحة المسك السيق . وساكنها يزهى على الغصن الوريق . يصدأ بهوائها السلاح ، وتجلى به القلوب والأرواح . برية بحرية . سهلية جبلية . منثورها منثورها :

متكامل فيها السرور لمن بها ... يوماً أقام كما تكامل سورها
وخلت قلوب قصورها فاستضحكت ... إذ عاش شاكرها ومات كفورها » ... الخ

وأنت ترى أن هذه مقامة وصفية . وعلى هذا النسق تقريباً جرى في مقامتيه الأخريين « المنبجية » و « الشهدية » . وله مقامة أخرى تعرف « بصفو الرحيق في وصف الحريق » بدأها بقوله « حدث غيث بن سحاب عن ندى بن بحر » واشتملت على وصف حريق شب في مدينة دمشق .

ومن كتاب المقامات صلاح الدين الصفدي (٧٦٤ هـ) وله مقامة وصف جريق أيضا . ويبدو من سياق حديثه فيها أنه نفس الحريق الذي وصفه ابن الوردي في مقامته .

وتقي الدين بن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) مقامة عارض بها المقامة الزورائية للحريري . وللشاب الظريف (٦٨٨ هـ) مقامة

وصف بها شاباً برح به الغرام . ولشرف الدين بن أسد المصرى (٧٣٨ هـ) مقامة فكاهية روى فيها حكاية أحد النحاة مع أحد الأساكفة ...

ومن فرسان المقامات جلال الدين السيوطى (٩١١ هـ) الذى ضرب فى كل فن بسهم . وله عدد ضخم من المقامات فمنها «بلبل الروضة» وصف فيها جزيرة الروضة . والمقامة «الوردية» وهى قصة تمثيلية أبطالها الأزهار ! فقد افترض الكاتب أن الأزهار اجتمعت عساكرها وعقدت مجلساً حافلا للجدل والمناظرة لاختيار أحقها بالملك فصعد كل منها المنبر وحاور وجادل . فتحدث الورد أولا ثم النرجس فالياسمين فالبان فالنسرين فالبنفسج فالنيلوفر فالريحان ، ورشح كل منها نفسه وزكاها ببيان أوصافها وذكر مزاياها ... ثم أسلم الجميع للريحان وخضعوا لسلطانه .

وعلى نمط مقامته الوردية نسج عدة مقامات أخرى وصف فيها أنواعاً من الثمار أو الأحجار الكريمة أو نحو ذلك مثل المقامة «المسكية» و «التفاحة» .

ومن أطرف مقامات السيوطى مقامته «رشف الزلال من السحر الحلال» وتسمى أيضاً «مقامة النساء» وقد وصف فيها عشرون عالماً فى فنون مختلفة — ما بين نحوى ومفسر وفقيه وأصولى ... الخ — ما جرى لكل منهم بينه وبين عرسه ليلة دخوله ... وروى كل منهم فى حديثه بمصطلحات علمه وفنه ...

وعلى نمط المقامات تعددت وتنوعت مظاهر القصة الأخرى من رسائل ومحاورات وموازنات ومفاخرات كالموازنة بين النار والتراب ، والمفاخرة بين السيف والقلم .

أما سير الأبطال وتراجم الرجال فما أكثرها فى هذا العصر وما أجلها وأعظم شأنها ، غير أنها أقرب إلى النزعة التاريخية منها إلى النزعة الأدبية . ومن بينها موسوعات ضخمة ، ومن بينها تراجم فردية مستقلة . ومن أمثلة الأخيرة وهى التى تقص سيرة رجل واحد ، كتاب «عجائب المقدور فى أخبار تيمور» لشهاب الدين بن عربشاه (٨٥٤ هـ) الذى أشرنا إليه من قبل . و «التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر» وهى سيرة السلطان جقمق كتبها ابن عربشاه أيضاً . وكتاب «تاريخ الناصر بن قلاون» لمؤلفه شمس الدين الشجاعى و «ترجمة الأوزاعى» لابن حجر العسقلانى (٨٥٤ هـ) و «سيرة نور الدين زنكى» لبدر الدين بن الشهيد الدمشقى كتبه عام (٨٧٤ هـ) . وغير هذه المؤلفات كثير .

وقبل أن نختم هذا المقال نحب أن ننوه بشيئين هما من القصة بسبيل : أحدهما الشعر القصصى ، والثانى الشعر التمثيلى وهما من الأدب العربى — إلى عهد قريب — نادران . ومن العجيب أن ترى فى العصر المملوكى نشاطاً من القراء فى ميدان القص ، وقد نوهنا فى مقالتنا عن «البردة» عن مجهود أصحاب البديعيات ، وعن أدباء البردة الذين عارضوها ، ومنظوماتهم عبارة عن قصة الرسول عليه الصلاة والسلام . وللشعراء فى غيرها جهود محمودة ، فمن منظوماتهم «سيرة بيبرس» لمحيى الدين بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ) و «سيرة برسباى» لبهاء الدين الباعونى (٩١٠ هـ) وهى أرجوزة فى ٥٥٧ بيتاً . والجوهرة فى سيرة المؤيد شيخ نظمها بدر الدين العينى (٨٥٥ هـ) . والعجيب أن ترى هذه النزعة القصصية لدى الزجالين ، وقد نوهنا بذلك فى مقالنا عن الزجل والزجالين وأشرنا إلى جهود القيم خلف الغبارى ، والقيم بدر الدين الزيتونى ..

أما الشعر التمثيلى فليس له وجود بالمعنى الذى نفهمه فى العصر الحديث أو عنه فى العصور القديمة فى الآداب الأجنبية . غير أن بعض أدبائنا عثروا على كتاب «طيف الخيال» لمؤلفه الشاعر الفائز الماجن الطبيب شمس الدين بن دانيال الموصلى (٧١٠ هـ) الذى كان يعيش بالقاهرة ، وقد تصفحنا هذا الكتاب فى دار الكتب المصرية . وهو مطبوع فى أوربا وبه مقدمات مكتوبة بالألمانية . ولعل المطبوع منه قسم من المؤلف الأصيل . ونستطيع القول إنه عبارة عن مقامة تمثيلية طويلة يصف فيها المؤلف لعبة «خيال الظل» . ويناطق فيها أبطال التمثيل على مسرح أمام النظارة ، خلف ستار بيضاء بالشمع . أما الأبطال فشخوص متعددة منها ما يمثل آدميين ، وما يمثل حيوانات . ومن الآدميين : الريس ، وطيف الخيال وهو شخص أحدب ، وحويش الحاوى ، وعسيله الماجيق ، ونباتة العشاب ... الخ